

مظاهر التداولية النصية في علوم القرآن وتفسيره

أ.د. عادل عبد الجبار زاير

الباحث عبد الخالق فرحان شاهين

كلية الآداب/ جامعة الكوفة

المقدمة:

ثمة اتجاهات ثلاثة تكشف عن كيفية بناء النص وانتظامه تستند إلى تتبع الوسائل اللغوية أو غير اللغوية التي تحكم ترابط النص سواء في سطحه "Surface text"، أم في عالمه "Textual world"؛ أم في الاستعمال "Text in use"، ليكون النص مبنياً بعضه على بعض لغوياً بوساطة روابط لغوية - صوتية ومعجمية ونحوية - تقع في سطح النص أو ظاهره؛ وليكون - أيضاً - مبنياً بعضه على بعض دلالياً بوساطة روابط دلالية أو علاقات معنوية تتربط بها مكونات عالم النص؛ وليكون النص - كذلك - مبنياً بعضه على بعض تداولياً يعتمد على كون النص أداة لفعل اتصالي يوجد في سياق عملية تواصلية^(١)، تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد، وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما^(٢)، وقد أفضى ذلك - على رأي بعض الغربيين - إلى ((الإجماع على أنّ النصوص يجب أن تحدد بأنّها أدوات للفعل الاتصالي، وأنّها أفعال مركبة - تتابع لأفعال لغوية - تأتلف من افعال جزئية))^(٣)، تمثل أفعالاً إنجازية يهيمن عليها فعل إنجازي محدد ((يعين الهدف الكلي للنص))^(٤)؛ وقد تطرقت كتب علوم القرآن وتفسيره إلى بعض المظاهر التي تصبّ في الاتجاهات المذكورة ومنها الاتجاه الأخير الذي تركز عليه محاولة هذا البحث .

المبحث الأول: النص وأفعال الكلام:

تساءل "أوستين": ((كيف ننجز فعلاً حين ننطق قولاً؟))^(٥)، وفي معرض الإجابة على هذا التساؤل، حدّد ثلاث خصائص للفعل الكلامي وهي أنّه فعل لفظي دال (فعل الكلام)، وأنّه إنجازي (قوة فعل الكلام)، أي

ينجز الأشياء والأفعال بالكلمات، وأنه فعل تأثيري (لازم فعل الكلام)، أي يترك آثاراً معينة في الواقع، ولاسيماً إذا كان فعلاً ناجحاً^(٦)، وهو يأتي في سياق التواصل اللغوي، ومن أمثلته، إذا دخل عليك شخص، وقال لك: خلف هذه الباب أفعى، فالفعل اللفظي هو الهيئة التركيبية لهذه الجملة، بأصواتها التي نطقت، وبتركيبها النحوي الصحيح، وبمعناها الحرفي الذي يقرّر أنّ خلف هذه الباب أفعى، ومرجعه وجود أفعى فعلاً، والفعل الإنجازي هو ما يقصده المتكلم، وهو التحذير من الأفعى، والفعل التأثيري هو ما يخلفه هذا القول من أثر في المخاطب، قد يكون الفزع أو الهرب منها أو قتلها^(٧)، والفعل الإنجازي أو الفعل المتضمن في القول هو الفعل الإنجازي الحقيقي؛ لأنه يُنجز بقول ما، وهذا هو المقصود من نظرية الأفعال الكلامية، لذا اقترح "أوستين" تسمية الوظائف القارة خلف هذه الأفعال بالقوى الإنجازية، ومن الأمثلة على ذلك: (السؤال، إجابة السؤال، إصدار تأكيد، أو تحذير، وعد، أمر، شهادة في محكمة... الخ))^(٨)، ((فتكوّن لنا بذلك حكمٌ ينصّ على أنه بواسطة القول ننجز فعل الكلام))^(٩).

((وتؤكد نظرية أفعال الكلام، أنّ الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي في آن، فهناك أحداث كثيرة ننجزها من خلال نطق جملة، أو نص ما))^(١٠)، ((والحدث هو تأليف بين مقصد وعمل))^(١١)؛ ويُستنتج من ذلك ((أنّ الفعل الكلامي الإنجازي الصادر عن المتكلم والذي يحمل مقصداً معيناً؛ يجب أن يرتبط عند المتلقي بفعل استلزامي يمثل النتيجة الحتمية المرتبطة بالفعل الإنجازي))^(١٢).

وقد صنّف "سيرل" الأفعال الكلامية على أساس الأغراض الإنجازية، مما يعني أنّ الفعل الإنجازي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يبذل الجهد الكافي للوصول إليه^(١٣). ((لم يُمثّل للمدخل الأساسي الخاص بنظرية الفعل الكلامي... إلّا بجمل مفردة؛ - حتى وإن تعلق الأمر بجمل يمكن أن يُعزا إليها في العادة وظيفية نصية في الوقت نفسه - ومن هنا وجب أن تكون مهمة البحث اللغوي النصي اختبار ما إذا كان من الممكن نقل الرؤى الأساسية التي طوّرت في نظرية الفعل

الكلامي والآلية المنهجية إلى تحليل النصوص أيضاً، وإذا كان من الممكن تبعاً لذلك، أن تنسب إلى النصوص كذلك خاصية الفعل الكلامي))^(١٤).

وفي هذا السبيل وُصِفَ ((النص بأنه تتابع من أفعال لغوية أساسية، بُني بصورة متدرّجة "تسمى أفعالاً إنجازية"، ويُعدُّ الفعل الإنجازي وحدة أساسية لتكوين النص، وتعني عبارة: "بني بصورة مُتدرّجة" في هذا السياق ؛ أنه تقوم بين الأفعال الإنجازية علاقات دنيا وعليا متنوّعة، حيث يهيمن فعل إنجازي محدد على الأفعال الأخرى، هذا الفعل يعيّن الهدف الكلي للنص))^(١٥)، وعُدَّ هذا التصور مسوّغاً لإدراج المستوى التداولي في إطار الدراسات النصية ((حتى وإن كانت التصوّرات تختلف بعضها عن بعض إلى حدّ ما في التفاصيل، فقد أثمرت هذه الدراسات تحديداً دقيقاً للمفاهيم الأساسية الخاصة بنظرية الفعل اللغوي، والإجماع على أنّ النصوص يجب أن تحدّد بأنها أدوات للفعل الاتصالي، وأنها أفعال مركبة - تتابع لأفعال لغوية - تأتلف من أفعال جزئية))^(١٦)، ويؤكد "فان دايك" على هذا الفهم بقوله: ((إنه لمن المهم في التداولية النصية تحديد الشروط التي تستطيع بها أفعال اللسان أن تتوالف في تتابعات من أفعال اللسان))^(١٧)، ((فالدراسة التداولية للنصوص تستند إلى تأويل للنص بوصفه فعلاً للسان، أو بوصفه: سلسلة من أفعال اللسان مثلاً: الوعود، والتهديدات، والأسئلة، والمطلب، إلى آخره))^(١٨).

وقول "فان دايك" الأخير يعيدنا إلى تصنيف "سيرل" الذي أعاد النظر في تصنيف "اوستين"، فقدّم تصنيفاً جديداً يبدو أنه يستند على الغرض أو القصد، واشترط فيه الصدق والإخلاص، وبصورة أكثر وضوحاً من "اوستين" وجعله على خمسة أصناف أيضاً وهي^(١٩): الاخباريات وتسمى - أيضاً - التقريرات، والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما، وأفعال هذا الصنف تحتمل الصدق أو الكذب، والتوجيهات وتسمى - أيضاً - الأوامر والغرضها الإنجازي هو محاولة المتكلم توجيه المخاطب وإلى فعل شيء معين، ويدخل فيها الأمر، والنصح والاستعطاف، والتشجيع ؛ والالتزاميات وتسمى - أيضاً - الوعديات وغرضها هو التزام المتكلم بفعل شيء معين في المستقبل، ويدخل فيها الوعد، والوصية ؛ والتعبيريات وتسمى لدى

بعض الباحثين البوحيات وغرضها هو التعبير عن موقف نفسي، ويدخل فيها الشكر، والتهنئة، والتعزية، والاعتذار؛ وأخيراً الإعلانات وتسمى - أيضاً - الإيقاعات، وقيل إنَّ الغرض الإنجازي هو إحداث تغيير في الوضع القائم، ويسوقون مثلاً عليها وهو فعل إعلان الحرب، فإذا تمَّ أداء هذا الفعل أداءً ناجحاً فالحرب معلنة.

المبحث الثاني: مظاهر أفعال الكلام:

ثمة عناصر مشتركة بين نظرية الأفعال الكلامية لدى الغربيين المحدثين وبين مواضع في التراث العربي موزعة بين كتب النحو واللغة والبلاغة والفقهاء وأصول الفقه وعلوم القرآن وتفسيره^(٢٠)، وما يهمننا هو عرض نبذ منها في كتب علوم القرآن وتفسيره التي قد تقترب من أفكار المحدثين الغربيين في هذا الشأن؛ ومع هذا فلا يزعم أحد أنها وصلت إلى التطابق لدى الفريقين؛ وذلك لسبب بسيط هو اختلافهما في الرؤية والمنهج، ومع هذا أيضاً لا نرى بأساً في قراءة بعض المواضع التي أوردها العلماء في علوم القرآن والتفسير بمنظار الأفعال الكلامية ومحاولة تأصيلها بوصفها مظاهر نصية رائدة.

وبعد أن مرَّ - آنفاً - أنَّ التداولية النصية تتصور النص بنية متدرجة تتكوّن من سلسلة مترابطة من الأفعال الإنجازية تقوم بينها علاقات متنوعة، قد يهيمن عليها فعل محدد يسهم في تحديد الهدف الكلي للنص، وفي ضوء هذا التصور نظر بعض المفسرين إلى قضية الترابط بين السور القرآنية اعتماداً على الغرض أو القصد العام لتلك السور.

أولاً: القرآن كلام متلائم المقاصد

((الكلام هو القول الدال على نسبة إسنادية مقصودة لذاتها، ويطلق أيضاً على الكلمة، ويُعبّر به أيضاً عن الخط والإشارة، وما يفهم من حال الشيء؛ وهل يطلق على المعاني القائمة بالذهن التي يعبر عنها بالكلام؟ في ذلك خلاف، وتقاليبه الست موضوعة، وترجع إلى معنى القوّة والشدة))^(٢١)، والقرآن كلام الله

سبحانه وتعالى وجاء ذلك في مواضع منها قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] الآية، ((أي القرآن))^(٢٢).

والقرآن قول الله - أيضاً - وجاء ذلك في مواضع منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] الآية، والمقصود بـ((القول: القرآن الذي أتى به محمد (ص)))^(٢٣).

وثمة تساؤل ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، وهو أن ((القرآن كلام الله، فكيف يصح إضافته إلى الرسول؛ قلت: أمّا إضافته إلى الله، فلأنّه هو المتكلم به، وأمّا إضافته إلى الرسول، فلأنّه هو المبلّغ عن الله تعالى ما أوحى إليه، ولهذا أكدّه بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣]، ليزول هذا الإشكال))^(٢٤)، و((المقصود من إرسال الرسول التبليغ إلى من أُرسِلَ إليه، فإذا لم يحصل ذلك فانت فائدة الرسالة))^(٢٥).

وورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]، بأن المقصود بـ((القول - هنا - القرآن))^(٢٦)، ((و"وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ" أي: أبلغناه لهم))^(٢٧)، أو ((أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلًا، وعداً، ووعداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ))^(٢٨)، ((إلى غير ذلك من معاني القرآن، إرادة أن يتعضوا فيفلحوا))^(٢٩)، وفي هذه الآية ((أجاب عن قولهم: هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة؛ بقوله: "وَلَقَدْ وَصَّلْنَا" أي: أنزلنا عليهم القرآن إنزالاً متصلاً بعضه في أثر بعض، ليكون ذلك أقرب إلى التذكر، والتذكير، والتنبيه، فإنهم يطلعون في كل يوم على فائدة زائدة، وحكمة جديدة))^(٣٠).

ولخص بعض المفسرين الأقوال السابقة بقوله: ((بين سبحانه صفة القرآن فقال: "وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ" أتبعنا في الإنزال بعضه بعضاً متصلاً وعداً، ووعداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ، ونصائح؛ أو في النظم بأن أنزلنا عليهم إنزالاً متصلاً بعضه في إثر بعض تقريراً للدعوة بالحجة... "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" إرادة أن يتذكروا، فيؤمنوا، ويطيعوا))^(٣١).

إنَّ من أهم خواص الفعل الكلامي هو استناده إلى قصدٍ يعزُّمُ عليه المتكلم، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا المعنى بقوله: ((إعلم أنَّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعلٌ لسانيٌّ ناشئٌ عن القصد بإفادة الكلام))^(٣٢)، ومن المعلوم أنَّ ((القصد من إنزال القرآن تعليم الحلال والحرام، وتعريف شرائع الإسلام، وقواعد الإيمان))^(٣٣)، لذلك اهتم به المفسرون ؛ لأنَّ ((الغرض من التفسير، الوقوف على مقاصد القرآن))^(٣٤)، و((التفسير في عرف العلماء، كشف معاني القرآن، وبيان المراد))^(٣٥) ؛ ونحن - أساساً - ((مُتعبِّدُونَ بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده))^(٣٦)، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ؛ ((أفلا يتأملون في معانيه ومبانيه))^(٣٧)، وفيه ((حصُّ على التفكير في معانيه لتظهر أدلته وبراهينه))^(٣٨)، ((وهذا استفهام معناه الإنكار؛ أي: أفلا يتأملون ما نزلَ عليك من الوحي، ولا يعرضون عنه، فإنَّه في تدبره يظهر برهانه، ويسطع نوره، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه، ولم يتأمله))^(٣٩)، وجاءت هذه الآية بعد أن ((حكى عن المنافقين ما حكى، وكان السبب فيه اعتقادهم أنَّه (ص)، غير محقِّ في ادِّعاء الرسالة؛ أمرهم بالتفكير والتدبر))^(٤٠)، ((لينجزوا عن النفاق والكفر، ويطيعوا أمر الرسول، وأصل التدبّر النظر في أدبار الأمور، والتأمُّل فيها، ثم استعمل في كلِّ تأمُّل، "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ"، أي: ولو كان من كلام البشر كما زعم البشر "لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً، متفاوتاً نظمه ومعانيه، وكان بعضه فصيحاً، وبعضه ركيكاً، وبعضه معجزاً يصعُبُ معارضته، وبعضه غير معجز، يسهل معارضته، وبعضه أخباراً مستقبلية أو ماضية لا يوافق المخبر عنه، وبعضه موافقاً للعقل في بعض أحكامه دون بعض... فلما تناسب كلُّه من حيث توافق النظم وصحة المعاني، وصدق الأخبار، واشتماله على أنواع الحكم ؛ من أمرٍ بحسن، ونهي عن قبيح، وعلى الدعاء إلى مكارم الأخلاق، والحثِّ على الخير والزهد، مع فصاحة اللفظ على وجه فاق على جميع الفصحاء والبلغاء، علم أنَّه ليس إلّا من جهة الله تعالى))^(٤١)، ولولا ذلك

((الظهر أنواع الاختلاف والتفاوت، وقال أكثر المتكلمين: المراد تجاوب معانيه، وتلاؤم مقاصده، مع أنه مشتمل على علوم كثيرة وفنون غزيرة، ولو كان من عند غير الله لم يخلُ من تناقض واضطراب))^(٤٢).
ثانياً: أثر القصد في ترابط السور:

بعد أن عُدَّت أغراض الوعد والوعيد والتحذير والتهديد، وأمثالها قوى إنجازية أو أفعالاً إنجازية - في تصوّر "اوستين" و"سيرل" -، ثُمَّ عُدَّت بعد ذلك من الوحدات الأساسية في تكوين النص - في تصوّر "فان دايك"، و"برينكر"، و"هاينمه من"، وغيرهم - ترتبط فيما بينها بعلاقات مختلفة، فإن كان ذلك كذلك، ربّما أمكن دراسة النص بوصفه فعلاً إنجازياً أو مركباً من أفعال إنجازية جزئية ترتبط عند المتلقي بفعل استلزامي يمثل النتيجة النهائية لقصد المتكلم من تكوين النص.

ومن مظاهر هذا التصور أنّ بعض المفسرين بحث في مسألة ترابط السور بحسب ترتيبها في المصحف اعتماداً على معرفة المقصود في كل سورة من خلال ((معرفة المقصود من جميع جملها))^(٤٣)، وقد أشار برهان الدين بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) إلى اهتمام بعض العلماء بذلك، ومنهم أبي جعفر بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) في كتابه المعلم بـ "البرهان في ترتيب سور القرآن"^(٤٤).

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في سورتي القلم والحاقة فـ((لَمَّا بَيَّنَّتْ سُوْرَةَ "نُونِ وَالْقَلَمِ" عَلَى تَقْرِيعِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَسَائِرِ الْعَرَبِ، وَتَوْبِيخِهِمْ وَتَنْزِيهِ نَبِيِّ اللَّهِ (ص) عَنْ شَنْبَعِ قَوْلِهِمْ، وَقَبِيحِ بَهْتِهِمْ، وَبَيِّنِ حَسْدهُمْ وَعِدَاوَتِهِمْ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ [القلم: ٥١] الآية، اتبعت بسورة "الحاقة"، وعبداً لهم ؛ وبياناً أنّ حالهم في سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ! فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ! وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ! سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ! فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤-٨]...، فسورة الحاقّة جارية مجرى هذه الآي المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب، ليتعظ بها من رزق التوفيق ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعِيَهَا أُنْذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] ((^(٤٥)).

ومن الأمثلة ما وردَ في سورتي إبراهيم والحجر: ((لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ وَعِيدِ الْكُفَّارِ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ الْمُخْتَمَمُ بِهَا سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ (ع) مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إِلَى خَاتَمَتِهَا [الآيات: ٤٢-٥٢]؛ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، عِنْدَ مَشَاهِدَةِ تِلْكَ الْأَهْوَالِ الْجَلَائِلِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى تَأْكِيدًا لِذَلِكَ الْوَعِيدِ: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَنَمَتُّوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣] ((^(٤٦)).

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا وَرَدَ فِي سُورَتِي غَافِرٍ وَفَصَلَتْ: ((لَمَّا تَضَمَّنَتْ سُورَةُ "غَافِرٍ" بَيَانَ حَالِ الْمُعَانِدِينَ وَجَاحِدِي الْآيَاتِ، وَأَنَّ ذَلِكَ ثَمَرَةُ تَكْذِيبِهِمْ وَجَدْلِهِمْ، وَكَانَ بِنَاءُ السُّورَةِ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ بِدَلِيلِ افْتِتَاحِهَا وَخَتَمِهَا))^(٤٧)؛ ((فَلَمَّا بَنِيَتْ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ أَعْقَبَتْ بِذِكْرِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ بِهَا الْعَرَبُ، وَقَامَتْ بِهَا حُجَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى الْخَلْقِ، وَكَأَنَّ قَدْ قِيلَ لَهُمْ: احْذَرُوا مَا قَدَّمَ لَكُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَوْضَحِ آيَةٍ، وَأَعْظَمِ بَرَهَانٍ ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ! كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ! بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فَصَلَتْ: ٢-٤])^(٤٨)، فَلَمَّا ((تَضَمَّنَتْ سُورَةُ "غَافِرٍ" مَا تَقَدَّمَ مِنْ بَيَانَ حَالِ الْمُعَانِدِينَ وَالْجَاحِدِينَ، وَأَعْقَبَتْ بِسُورَةِ "السُّجْدَةِ"^(٤٩)؛ بَيَانًا أَنَّ حَالَ كُفَّارِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ كَحَالِ مَنْ تَقَدَّمَ هُمْ))^(٥٠)، ((فَاعْتَضَدَ التَّحَامُ السُّورَتَيْنِ وَاتَّصَلَ الْمُقْصِدَيْنِ))^(٥١)؛ وَمِمَّا يَعْضِدُ التَّحَامُ السُّورَتَيْنِ وَاتَّصَلَ هُمَا هُوَ كَوْنُهُمَا مِنَ الْحَوَامِيمِ السَّبْعِ^(٥٢)، حَيْثُ ((أَنَّ الْحَوَامِيمَ نَزَلَتْ عَقِبَ (الزمر)، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ مُتتَالِيَاتٍ كَثْرَتِيهَا فِي الْمَصْحَفِ))^(٥٣).

و((لَمَّا كَانَتْ سُورَةُ "يُونُسَ" قَدْ تَضَمَّنَتْ مِنْ آيِ التَّنْبِيهِ وَالتَّحْرِيكِ لِلنَّظَرِ، وَمِنْ الْعِظَاتِ وَالتَّخْوِيفِ، وَالتَّهْدِيدِ، وَالتَّرْهِيْبِ وَالتَّرْغِيبِ، وَنَقْرِيْعِ الْمُشْرِكِينَ وَالجَاحِدِينَ، وَالقَطْعِ بِهِمْ، وَالاعْلَامِ بِالجِرْيَانِ عَلَى حَكْمِ السُّوَابِقِ، وَوُجُوبِ التَّقْوِيْضِ وَالتَّسْلِيمِ، مَا لَمْ تَشْتَمَلْ عَلَى مِثْلِهِ سُورَةٌ لِتُكْرَرُ هَذِهِ الْأَغْرَاضُ فِيهَا، وَسَبَبُ تَكَرُّرِ ذَلِكَ أَنَّهَا أَعْقَبَتْ بِهَا السَّبْعَ الطَّوَالَ... أَلَا تَرَى افْتِتَاحَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] ، ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] ، ثم قد نُبِّهوا هنا، كما نُبِّهوا هناك^(٥٤)، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ((^(٥٥)).

وعلى هذه الطريقة ارتبطت سورة "هود" بما قبلها؛ وذلك بعد أن تقدّم ما تقدّم ((في السبع الطوال وما تلاها، أعقب ذلك بقوله: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ثم اتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة عليها مدار آي الكتاب، وهي فصل الإلهية، وفصل الرسالة، وفصل التكليف. أمّا الأول فأشار إليه قوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢] الآية، وأمّا فصل الرسالة فأشار إليه سبحانه: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢] الآية، وأمّا فصل التكليف فأشار إليه قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] الآية، وهذه الفصول الثلاثة هي التي تدور عليها مدار آي القرآن، وعليها مدار السورة الكريمة))^(٥٦).

ويبدو من الأقوال المذكورة آنفاً أنّ القرآن الكريم بوصفه نصاً أو خطاباً يتألف من معاني مقصودة متصلة بعضها ببعض تتمثل بالوعد والوعيد والقصص والعبّر والمواعظ والنصائح والأمر والنهي وما إلى ذلك، يمكن أن يقترب هذا الوصف من تأويل النص - بحسب فان دايك وغيره - في إطار "التداولية النصية" بوصفه فعلاً كلامياً، أو بوصفه سلسلة متتابعة من أفعال الكلام كالوعد والتهديدات والأسئلة والمطالب التي تتعاضد معانيها، وتتلاءم مقاصدها لتسهم في إنجاز الغرض أو المقصود النهائي الذي بني النص من أجله.

الخاتمة:

وقد انتهى البحث إلى عدد من النتائج وكانت على النحو الآتي:

١. تتصوّر التداولية النصية النصّ بنية قصدية متدرّجة تتكون من سلسلة من الأفعال الإنجازية تقوم بينها علاقات متنوعة، قد يهيمن عليها فعل محدّد يسهم في تحديد الهدف الكلي للنص .

٢. في ضوء التصور المذكور آنفاً يمكن النظر إلى ما أورده بعض المفسرين في كون القرآن كلام الله بلّغه رسوله (ص) إلى الناس، بعد أن أنزل إنزالاً متتابعاً متواصلًا، وعداً، ووعداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ، ولم ينزل دفعةً واحدةً ؛ ليكون أقرب إلى التذكّر والتذكير والتنبيه.

٣. أنّ من أهم خواص الفعل الكلامي هو استناده إلى قصدٍ يعزّم عليه المتكلم، ومن المعلوم أنّ القصد من إنزال القرآن الكريم تعليم الحلال والحرام، وتعريف شرائع الإسلام، وقواعد الإيمان ؛ لذلك اهتم به المفسرون ؛ لأنّ الغرض من التفسير هو الوقوف على مقاصد القرآن ومراده وأغراضه.

٤. يمكن النظر إلى ما أورده بعض المفسرين بشأن الترابط بين السور القرآنية بحسب ترتيبها في المصحف اعتماداً على الغرض أو القصد العام فيها، لتكون مظهراً من مظاهر النص القرآني بوصفه نصّاً يتألف من معاني مقصودة متصلة بعضها ببعض تتمثل بالوعد والوعد والقصص والعبر والمواعظ والنصائح والأمر والنهي، وما إلى ذلك، ويمكن أن يقترب هذا الوصف من تأويل النص بوصفه سلسلة من أفعال كلامية تتعاضد معانيها وتتلاءم مقاصدها لتسهم في إنجاز الغرض النهائي الذي بني النص من أجله.

الهوامش:

١. ينظر: التحليل اللغوي للنص: ٣١.
٢. ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د. محمود أحمد نحلة: ١٤.
٣. مدخل إلى علم لغة النص: فولفجانج وديتر فيهجير: ٥٦.
٤. التحليل اللغوي للنص: ١٣٣.
٥. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٥.
٦. ينظر: لسانيات الخطاب وانساق الثقافة: د. عبد الفتاح احمد يوسف: ٤٥ ، وينظر: نظرية أفعال الكلام العامة، "كيف ننجز الأشياء بالكلام" : أوستين: ١٢٣.
٧. ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٨.

- ٨.التداولية عند العلماء العرب: ٤٢.
- ٩.نظرية أفعال الكلام العامة "كيف ننجز الأشياء بالكلام" : ١٣٤.
- ١٠.نظرية علم النص: ٤٨.
- ١١.التحليل اللغوي للنص: ١٢٨.
- ١٢.نظرية علم النص: ٤٩.
- ١٣.ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٩-٧٠ , ينظر: التحليل اللغوي للنص: ١٤٩.
- ١٤.مدخل إلى علم لغة النص: فولفجانج هانيه مان وديتر فيهفجر: ٥٦.
- ١٥.التحليل اللغوي للنص: ١٣٣.
- ١٦.مدخل إلى علم لغة النص: فولفجانج هانيه مان وديتر فيهفجر: ٥٦.
- ١٧.مدخل أولي إلى علم النص , ضمن كتاب (العلاماتية وعلم النص): ١٧٣.
- ١٨.المصدر نفسه : ١٧١.
- ١٩.ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٩, ٥٠ , وينظر: نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة (بحث): محمد مدور: ٥١ , ٥٢.
- ٢٠.ينظر: آفاق في البحث اللغوي المعاصر: ٦٠ , وينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٦-٨.
- ٢١.البحر المحيط: ٤٣٥/١.
- ٢٢.تفسير القرآن العظيم: ١٠٠/٤ , وينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١٦٥/١ , وينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٣٥٢/١ , وينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل: ٣٣٧/٢ , وينظر: البحر المحيط: ١٣/٥ , وينظر: الجواهر الحسان: ١٦٤/٣.
- ٢٣.البحر المحيط: ٣٨١/٦ , وينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٧٤/٢ , وينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل: ٢٧٤/٣ , ينظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ١٢٨/٥ , وينظر: زبدة التفسير: ٤٥٣/٤.
- ٢٤.لباب التأويل في معاني التنزيل : ٣٣٧/٤.
- ٢٥.المصدر نفسه : ٧٤/٢.

٢٦. التسهيل لعلوم التنزيل: ١١٥/٢ , وينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٦٤٨/٢ , وينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل:
٣٦٧/٣ , وينظر: البحر المحيط: ١٢٠/٧ , وينظر: الجواهر الحسان: ٢٧٦/٤ , وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا
القرآن الكريم: ١٨/٧ , وينظر: زبدة التفاسير: ١٧٦/٥ .
٢٧. التسهيل لعلوم التنزيل: ١١٥/٢ .
٢٨. مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٦٤٨/٢ , وينظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ٣٥١/٥ , وينظر: الجواهر الحسان:
٢٧٦/٤ , وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٣١٢/٤ , وينظر: زبدة التفاسير: ٧٦/٥ .
٢٩. غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ٣٥١/٥ , وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٣١٢/٤ .
٣٠. غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ٣٥١/٥ .
٣١. زبدة التفاسير: ١٧٦/٥ .
٣٢. مقدمة ابن خلدون: ٥٠١ .
٣٣. البرهان في علوم القرآن: ٤٢١/١
٣٤. نبذ من مقاصد الكتاب العزيز : العز بن عبد السلام: ٧٠ .
٣٥. البرهان في علوم القرآن: ٢٨٥/٢ , وينظر: الإتيان في علوم القرآن: ١٥٣/٤ .
٣٦. الإتيان في علوم القرآن: ٢٧٢/١
٣٧. مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣٧٨/١
٣٨. التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٠٠/١ .
٣٩. البحر المحيط: ٣١٧/٣
٤٠. غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ٤٥٥/٢ .
٤١. زبدة التفاسير: ١١٣/٢ .
٤٢. غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ٤٥٦/٢ .
٤٣. نظم الدرر: ٦/١ .
٤٤. ينظر: نظم الدرر: ٦/١ .
٤٥. البرهان في ترتيب سور القرآن: ٣٤٥-٣٤٦ .

٤٦. المصدر نفسه: ٢٤٠-٢٤١.
٤٧. المصدر نفسه: ٢٩٤.
٤٨. المصدر نفسه: ٢٩٦.
٤٩. أي سورة (فصلت).
٥٠. البرهان في ترتيب سور القرآن: ٢٩٨.
٥١. المصدر نفسه: ٢٩٧.
٥٢. الحواميم السبع: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.
٥٣. أسرار ترتيب القرآن: ١٣٠.
٥٤. يقصد الآية (٢٣) من سورة البقرة.
٥٥. البرهان في ترتيب سور القرآن: ٢٢٣-٢٢٤.
٥٦. المصدر نفسه: ٢٢٦.

المصادر والمراجع:

١. الإتيان في علوم القرآن: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد الرحمن فهمي الزواوي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط ١، (١٤٣٧هـ-٢٠١٦م).
٢. أسرار ترتيب القرآن: الحافظ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد القادر احمد عطا، دار الاعتصام، ط ٢، (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).
٣. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود احمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، (٢٠٠٢م).
٤. البرهان في ترتيب سور القرآن، أبو جعفر احمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
٥. البرهان في علوم القرآن: الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، والشيخ جمال حمدي الذهبي، والشيخ إبراهيم عبد الله الكردي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط ١، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

٦. التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمه ومهّد له وعلق عليه: أ.د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، (١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
٧. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ط١، (تموز-يوليو-٢٠٠٥م).
٨. التسهيل لعلوم التنزيل: الشيخ الإمام العلامة المفصّر أبي القاسم محمد بن احمد جزى الكلبي (ت٧٤١هـ)، ضبطه وصححه وخرّج آياته: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).
٩. تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب، لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي (ت٩٨٢هـ)، تحقيق: عبد القادر احمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض، (١٣٩١هـ/١٩٧١م).
١٠. تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بابي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق: الشيخ عادل احمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: د. زكريا عبد المجيد النوتي، د. احمد النجولي الجمل، قرّضه، أ.د. عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط١، (١٤١٣هـ-١٩٩٣م).
١١. تفسير الثعالبي المسمّى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي (ت٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود وشارك في تحقيقه أ.د. عبد الفتاح أبو سنّة، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١، (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).
١٢. تفسير الخازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن (ت٧٢٥هـ)، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م).
١٣. تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت - لبنان، ط١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
١٤. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: العلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت٨٥٠هـ)، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه، الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط١، (١٤١٦هـ-١٩٩٦م).
١٥. زبدة التفسير، المولى فتح الله الكاشاني (ت٩٨٨هـ)، تحقيق: العلامة الميرزا محمود الزنجاني، شارك في تحقيقه: فارس حسون كريم، ومحمود البدري، ومحمد آغا أغلو، مؤسسة المعارف الإسلامية، ط١، (١٤٢٣هـ).

١٦. العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة: د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دار المحبّة، حلب/دمشق - سورية، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م).
١٧. لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتّاح أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، ط١، (١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
١٨. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت ٧١٠هـ)، حققه وخرّج أحاديثه، يوسف علي بديوي، راجعه وقَدّم له، محي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت - لبنان، ط١، (١٤١٩هـ-١٩٩٨م).
١٩. مدخل إلى علم لغة النص، فولفانج هاينه مان، ديتير فيهفجر، ترجمه وعلّق عليه ومهد له: أ.د. سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، جمهورية مصر العربيّة، ط١، (٢٠٠٤م).
٢٠. مقدمة ابن خلدون: العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، ضبط وشرح وتقديم: د. محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، (١٤٣٢هـ-٢٠١١م).
٢١. نُبذٌ منْ مقاصد الكتاب العزيز، سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، قَدّم له: الشيخ عبد الغني الذّقر، حقّقه وعلق عليه: أيمن عبد الرزاق الشوّا، مكتبة الغزالي، دمشق، ط١، (١٤١٦هـ-١٩٩٥م).
٢٢. نظرية أفعال الكلام العامّة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، أوستن، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، (١٩٩١م).
٢٣. نظرية الأفعال الكلاميّة بين التراث العربي والمناهج الحديثة، دراسة تداوليّة، محمد مدور، بحث منشور في "الواحات للبحوث والدراسات"، (مجلة)، تصدر عن المركز الجامعي غرداية، جامعة غرداية - الجزائر، العدد (١٦)، (٢٠١٢م).
٢٤. نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، (١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م).
٢٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: الإمام المفسّر برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).

